عبد الكريم غلاب

# المسؤولية
# حواء تسوق آدم إلى الدنيا

2024

# المسؤولية

## حواء تسوق آدم إلى الدنيا

### - 1 -

حواء تترضي آدم - واقفة بين يديه في استسلام -. بكلمات هامسة :

- آدم، علمني، فزوجك في حاجة إلى أن تتعلم منك، أدركت أن عالما آخر ينتظرنا، وما بي معرفة به، ولا قدرة لي أن أخوض غماره، حتى ذريتنا لا أعرف كيف سيكونون، فوجئت بالحديث عن شيء إسمه «الذرية» هل تعرف كيف؟

- حتى هذه لا تعرف، هي تجربتك لا تجربتي. ستتعلمين بالممارسة وسأشاطرك المسؤولية. أنت يا حواء ستكونين أولى أم في هذا الكون. ما أدري أين ستختارين إنجابك ؟

- هناك عالم غير الجنة ؟

- شيء ما وقر في نفسي يؤكد ذلك.

- والأمانة، أنستطيع تحملها وحدنا ؟ لم لا تساعدنا الملائكة، وقد سجدوا لك جميعهم، كما حدثتني، هم في خدمتك يا آدم ؟

(يفكر في سؤال آخر يحرجه من أسئلتها)، لا يجوز أن تُضِلَّ الفهم فأعيش معها في ضلال.

- حواء، أفهمت جيدا، دون أن تتجاوزي حدود ما تتعلمين. أي نعم سجد لي الملائكة كلهم أجمعون، بأمر من خالقهم. ليس تقديسا، فيما فهمت، فالقداسة لله وحده، ولكن لامتحان قوة الطاعة فيهم لله، فكانوا أهلا ليطيعوا. فهم ليسوا في خدمتي، هم مسخرون لواجبات أخرى ليس في مقدرتي أن أفهمها... (صمت

قصير) لعلك ارتويت مما حدثتك، به، أشياء أخرى تساءلت عن بعضها. لا أفهمها وليس في استطاعتك فهمها، دوني.

- (في عناد) لست قاصراً.

- لا، غير أن فكرك وفكري يتحركان في إطار معلومات تنقصك كما تنقصيني بعض مفاتيحها. (أضاف في نفاذ صبر) حواء الجوع أخذ مكانه مني، وأنت أليس كذلك ؟ تعالي لنقطف من هذه الأشجار ما يذهب جوعنا.

وفدت إليه وهي تجري بعد غيبة ليست بقصيرة، كان جالسا على عشب متنام يكاد يغطي جسمه، لم يفطن إليها تقتحم المنبت، كان يفكر، يعبث بأصابعه بقبصة بين الإعشاب كأنه يبحث عن ضائع.

- آدم... آدم...

هتفت لاهثة أنفاسها من سرعة جريها، رفع عينيه على وقع صوتها، بدا له أكثر نعومة مما ألف، بدت له جميلة تكاد تكون مغرية بخديها الموردتين وعينيها المشعتين الضاحكتين.

- ما بك يا حورية الجنة، أرهقك الجري دون ما حاجة إلى ذلك، استريحي حتى تهدأ أنفاسك قبل أن تتكلمي.

استمرت أنفاسها المتقطعة حريصة على أن تشرع بالقول، وإن كانت لا تتبين، ما كان يستطيع أن يفهمها وهو يجمع كلماتها المتلاحقة :

- شجرة ضخمة غريبة جميلة ظليلة.

أوهَمَهَا أنه يسمع، استمر يعبث بالعشب ويتحدث إلى نفسه : لا فائدة في إقناعها أن تترك الحديث إلى أن تستعيد أنفاسها.

- آدم، آدم، أتحدث إليك وأنت تعبث بالعشب ؟ أين كنت ؟ بدأت تتغيب عني بفكرك وأنت حاضر.

- حين تلهثين وأنت تتحدثين لا يكاد كلامك يبلغني، استريحي قليلا وقولي (في سره : قولها لا ينفذ) قولا جميلا واضحا يجتذب فكري إليك.

يبتسم في وجهها ليمحو ما قد يكون من أثر غير سار في نفسها.

- لعلي الآن أستطيع أن أفهم عنك، تحدثي بهدوء، بصوتك العذب في غير عجلة.

- على أن تستمع إلي بأذنين واعيتين غير متبرمتين من كلامي، (استمرت) أمعنت في السير حتى اقتحمت غابة حافلة بأشجار سامقة تتدلى أغصانها فتنشر ظلالا، لا تفرز نسيما عاطرا، تمنيت لو كنت معي فلعلك لم تصادف في تجوالك مثيلا لها من قبل. فكرت في أن أعود أدراجي لأدعوك إلى مصاحبتي، خشيت أن تمتنع. فما حدثني عنه من التفكير في الأمانة، قد يشغلك عن اكتشاف الغابات والمتعة بالجديد مما تحفل به جنتنا.

أخذ يضيق ذرعا بحديثها الهامشي، يعرف أنها تتضايق إذا قاطعها، حينما تسهب في القول، فتقتصر على أحسنه.

- وكانت الغابة موحشة، عرفت طريقك إليها وسرت إليها، وعدت منها حتى اكتشفتني في مجلسي هذا وسط هذا العشب الطري الندي.

أدركت ما في كلامه من معابثة شبه ساخرة، أجابت في هدوء بصوت ناعم :

- رائحتك ترشدني إليك، ولو كنت في أغوار الجنة أو مجاري الكوثر، آدم، تخشى علي الضياع ؟ أنا معك حيثما كنت.

- غير أنك تقتحمين الغابات والأغوار. قد أبحث عنك فلا أجدك، (قاطعت : رائحتي لا تهديك إليّ ؟)

- قد أذهب بعيدا فتضيعين عني (مازحا) وعند ذلك يبقى آدم دون زوج.

- لا لن تروق لك حياة بدوني يا آدم، لن أضيع عنك، ولن تضيع عني. الغابة مغرية بالتجوال والزيارة. سآخذك إليها عندما يساورك هم الأمانة.

- وماذا في الغابة غير ما نعيشه دائما من نعيم الجنة ؟

- فيها... فيها... غير الأشجار السامقة جداول من مياه رقراقة لعلها من الكوثر، حفيف الأشجار فيها يشعر بالأنس.

- ولم تتسلقي إحداها ؟

- (أدركت ما في سؤاله من همز) لا... حافلة بالأغصان الشائكة لا تساعد على التسلق. غير أني وجدت بينها شجرة رائعة مفردة في حقلها، خضراء رائق لونها. ثمارها حافلة بما لم أر في حقول الجنة غيرها، تجتذب العين ببهائها وغزارة عطائها تغري الجائع بالاقتطاف، سنعود إليها عندما نكون جائعين.

انتفض آدم وهاجس يزعجه.

- نعود إليها، لماذا ؟

- لنأكل منها، ونمتع العين بالنظر إليها.

- أأكلت منها يا حواء ؟

- لا، ولكن سآكل منها عندما أكون جائعة، أليست من أجمل ما تحفل به الجنة من أشجار مثمرة ؟

مرة ثانية انتفض في غضب سريع، لم تشهده حواء في مثل هذه الثورة.

- حواء، إياك أن تكوني قد أكلت، إياك أن تطعمي من هذه الشجرة دون إذني: (ازداد غيظه) لا تفعلي يا حواء، فالشيطان الذي يغري بالأكل من تلك الشجرة الملعونة، لعله تذكر ما أمره الله به «ولا تقربوا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين».

- الملعونة ؟ وما أدراك أنها هي، (في بساطة) كل الأشجار غير ملعونة.

- ولعلها تلك وحدها الملعونة، نهينا أنا وأنت أن نقربها أو نأكل منها، وأمامك حقول حافلة بأشجار غير محرمة. (لم يتمالك نفسه) أنت دائما تتوقين إلى غير ما هو حلال، ألا تكفيك كل هذه ؟ (أشار بذراعيه جميعها إلى الآفاق).

ارتاعت لغضبه خشيت أن يصيبها وتصيبه لعنة الشجرة، تكومت في مكانها مبتعدة عنه قليلا، انحبست الكلمات في فمها من رعب لم يتملكها من قبل، وهي تسترق النظر إلى وجهه الحافل بالغضب، تستمع إلى أنفاسه المتقطعة، تخشى أن تفاتحه بكلمات الاعتذار والتوبة، فكرت قليلا ثم قالت :

- أعتذر وأتوب رغم أنني لم أرتكب إثما، وقفت أمام الشجرة مبهورة (في سذاجة) الذنب ذنب الشجرة وليس ذنبي. لم تقربها يداي، ولم يطعمها فمي.

التفكير المستمر يخرجه أحيانا عن صوابه بل سيعرف أني لم آكل منها، وإن لم تكن هي الملعونة، ولم لا آكل منها ويأكل،

ولو كانت ملعونة، إذا كان ثمرها طيبا ؟ هو الملهم لا أنا، هو الرجل وأنا امرأة، أنا أمة الله، زوجة أسكن معه الجنة. تغمرنا معا ساعة الاستجابة، أشعر بأنه السيد في لحظات الخشوع والخوف، هو السيد في اقتحام ماء النهر، يغضب في هدوء، ولا يغضبني كلما تصرفت في غير وعي. أحاول ألا أغضبه، لا أملك شفاء لغضبه، كيف لي الآن أن أسترضيه ؟ سأحاول.

بدأ الهدوء يراود أعصابه، أمسك بالقصبة يداعب الحشائش، انسلت من مكمنها متوترة والخوف باد عليها، سارت تحبو على يديها وركبتيها مخافة أن تزعجه، ابتعدت مسافة، قبل أن تقف على قدميها، تسير في هدوء بعيدة عنه، حزينة تكاد الدموع تطفو من عينيها. على ربوة غير بعيدة جلست تتطلع إلى الأفق علها تستوعب ما حدث. نهض من مكانه يخطو خطوات وتيرة يجيل نظره فيما حوله، توقع أن يجدها على الربوة، اتجه نحوها وعيناه تتجولان في الأفق، أدركها تجلس وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها بكفين متعانقتين، أخذ طريقه إليها، شعرت بأنه يدنو

نحوها تماسكت في شجن، علها تترك له المبادرة، خطا بعيدا ليترك لها المبادرة، كل منهما على مبعدة من الآخر، شعرت بأنه يقترب منها تنفعل، شعرت بأنها تجاوزت الحد في الحديث عن الغابة والشجرة، قال عنها إنها ملعونة، تخلصت مما ألمَّ بها من شجن، نزلت من الربوة مسرعة نحوه في خفة وحيوية :

- آدم... آدم، هناك ربوة جميلة تشرف على أفق بعيد، أتصحبني للعودة إليها، ستكون مسرورا لارتيادها.

صوتها الناعم تسلل إلى كيانه فغمره بهدوء، تطلع إلى وجهها بعينين مشوقتين.

- حواء، لم صوتك أكثر نعومة، كما لو كنت غيرك من قبل ؟

- لماذا صوتك قوي كأنه يخرج من الكهف ؟

- لأني أنا... ولأنك أنت.

- اكتشفت نعومة صوتي مؤخرا؟ يبدو أني تغيرت.

- ربما قد تغير سمعي.

- بما ألفت من تغريد الطيور.

وضع ذراعه على كتفها وهو يضمها إليه.

- حواء... آمل ألا تكوني قد انزعجت من غضبتي، إني لأخشى أن نقع معا في محظور.

- يزعجني ما يزعجك أخشى أن أسبب لك ذلك (صمت وتفكير) يبدو لي أن الشجرة ليست هي الملعونة. لو اقتربت منها لأعجبت بضخامتها وطيب ثمارها وجمال ورقها، ولجلست تحت ظلالها.

- ولأكلت منها ؟

- من يدري فقد نجدها مثل باقي الشجر، ولعلها أكثر جمالا وبهاء وأطيب مذاقا وأروع منظرا.

صمت ساد بينهما، آدم يفكر وحواء تواصل بقية حديثها. لم تتحمل الهزيمة بعد غضبة آدم، قطعت الصمت قائلة :

- آدم، علمتني ألا أتخذ قرارا متسرعا دون تفكير وتدبر وروية، أتذكر يوم طلبت إليك ألا نمر من ممر ضيق تكتنفه الأشواك ؟ سألتني : هل رأيت الأشواك بعينيك ولمستها بيديك ؟ كنت واهمة، تخلصت من وهمي بالتجربة التي أرشدتني إليها... لا تظلم الشجرة يا آدم، اقترب منها وتذوق ثمرها، لعلك ستتأكد أنها شجرة تشبه غيرها ولعلها، أيضا ليست بالشجرة الملعونة.

توقف آدم وكان يسير الهويني تحاذيه حواء، تكاد تلتصق بجانبه، وقفت قبالته تتطلع إلى وجهه، تقرأ ملامحه، تتحسس من شعرات لحيته، تحرك في عصبية تكشف ما وراء نظراته في الأفق، كانتا تتحركان في اتجاهه، تطيلان النظر علها تقرأ مكتوبا يستعصي على القراءة، ثم تهيمان في الفضاء الواسع كأنما تكتشفان المجهول، لم تقاطع وقفته التأملية. تذكرت أنه يقوم بهذه الحركة كلما غمرته الحيرة، لم يكد يتخلص من

الاضطراب الذي يصاحب حيرته بسهولة ويسر، ولا كان يقتنع بما تقول دون أن يطيل النظر، دون أن يفكر، كانت تريده أن يقتنع فيستجيب لما تقول. يستمع ويعي، لا يتخذ قرار استجابة أو رفض دون أن ينتظر الإلهام أو استجابة العقل. عزم يدفع به دون تردد.

- لعله لا يثق بي كامل الثقة كما أثق به كامل الثقة.

كثيرا ما وضعت السؤال دون أن تستطيع الإجابة عنه، كثيرا ما ألحت عليه في ألا يتردد كثيرا فيبتسم في وجهها، ويزداد ترددا. طالت وقفته تلك، تواصل صمته رغم ما كان يشهده من انفعال في عينيها ووجهها. اكتسى محياه جمالا وإشراقا. غمره التفكير في مسؤولية عمل لم يقتنع به بيسر. حينما يتجلى لها بهذا الشكل الرائع لتهيب النظر إليه، تخشى أن تقتحم عرينه، يلفها صمت يقف بينهما حاجز من الحذر، يقطعه طائف من التردد والخوف والهيبة.

واصل خطواته الوتيرة في غير اتجاه، كانت تظنه سيتجه نحو الغابة، أخذ طريقه في خطوات لا إرادية في اتجاهها. تحولت خطواته في اتجاه آخر. كادت تنطلق فترشده إلى حيث الغابة تتوسطها الشجرة. تطلعت إلى وجهه، تحدث إليها بالغموض الذي يزداد حدة، توهج يغمره، فتزداد خشيته من أن تبدأه بالحديث. عاد الصمت يغمرهما لتَتَّسع خطواته دون أن تعترض أو توجه، ابتعدا عن طريق الغابة، يئست من أن توجهه إلى تلك الطريق، استسلمت للأمر في صمت، أمسكت بيده لتضع كفها في كفه، كما يفعلان عندما يحلو لهما المسير معا في وداعة واطمئنان نفسي. ثم هَمَّ يفتتح الحديث بكلامه عن المسؤولية والأمانة :

- حواء... ما تزال هموم الأمانة والمسؤولية تغمرني وتلف كياني، أية أمانة وأية مسؤولية ؟ أنتظر الإلهام، طال انتظاري، عبد الله أنا. أطالب واستعجل وأسأل، ولا يسأل عما يفعل. الانتظار - أمانة - أنت وأنا في مرحلة انتظار الأمانة، لا أحملك

على الاعتراض. فالتوقع هو سبيلنا معا. لا تيأس يا آدم، لن يدعنا الله في مرحة الانتظار.

لمعت في عقلها فكرة، كانت ستتخلى عنها، لو لم يزح عنها حديثه غمرة الخشية :

- آدم، لَم لا تسأل الملائكة الذين سجدوا لك فهم في خدمتك يساعدونك على كشف الغمة.

- حواء، هم في خدمة الله عز وجل، لم يسجدوا لي، قلت لك ذلك، بل سجدوا لإرادة الله الذي أمرهم فاستجابوا. أين منهم من ألجأ إليه بالسؤال، وهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله ؟

غمرها تجدد الحديث عن الأمانة بالحيرة، كما غمرها الاتجاه في غير طريق الغابة بالإحباط.

نحن يا حواء في عالم لا نعرف متى وكيف ابتدأ. وسوف لا تعرف متى وكيف سينتهي (ضجت الأفكار من حولها وهو يضيف) أخشى أن نظل في المجهول.

- هل نحن في المجهول ؟ (صرخت بصوت مسموع في عصبية) لم تتوقعها.

- لا تضاري، أنت وأنا نعيش في المجهول، أيمكن أن تحدثينني عن المصير ؟

- أي مصير ؟ (لأول مرة تسمع منه الكلمة).

- مصيرك ومصيري في هذه الجنة التي لا أعرف لجهلي ما مصيرنا فيها، لماذا وقع الاختيار علي وعليك لنسكنها دون بقية مكونات الكون ؟ أنت وأنا نمثل الكون ؟ تظنين ؟ لا تكوني ساذجة، الملائكة الذين تحدثت عنهم جزء من هذا الكون، تساءلت عن بقية المكونات الكونية فغمرني الجهل دون إدراك، أتعرفين يا حواء أن نفسي، ضميري، قلبي، جميعهم يتطلع إلى الأمانة والمسؤولية، مسؤوليتي ومسؤوليتك، ليس أن نسكن الجنة ونأكل فيها رغدا حيث شئنا. في اعتقادي أن مهمتنا أكبر من ذلك. لك ولي عقلان يتحركان، يفكران، يبتكران، ويطفحان بقضايا.

- مثل ماذا ؟

ضحك بعد طول عبوس وهو يجيب :

تفكرين وتبتكرين وتقترحين وتمارسين ما يوحي به فكرك دون أن تدري أنك تفعلين، ربما كنت مثلك في بعض الأحيان، غير أني أتوقف أحيانا كما أفعل الآن لأتساءل :

- ما الجواب عما يغمر فكري ؟ ماذا أفعل ؟ ولِمَ ؟ وإلى أين ؟ ما مقياس فهمي ؟ وما رسالتي ؟ وما مسؤوليتي ؟ ما الأمانة التي أتحملها ؟ أجهر لك بالحقيقة يا حواء : حياتنا في الجنة على نحو ما مارسنا لحد الآن لا تجيب عن كل أسئلتي.

- ولكنك في نعيم مقيم...

- النعيم الأبدي ليس نعيما، (ارتفع صوته وتهدج حتى خشيت أن يتملكه الغضب مرة أخرى) أريد التغيير، أريد عالما آخر، ولو لم يكن نعيما مقيما.

- (في شجن) وتتركني وحدي ؟

- يا أمة الله، أنت خلقت لتكوني معي زوجي، معي حيثما أقمت أو ارتحلت (أزعجها كلمة «رحلة») لن أكون وحدي، لتطمئني أنك لن تبقي وحدك، سكنا الجنة معا وسنكون معا ربما في ملكوت آخر.

لمعت في فكره فكرة مثيرة، أضاف قائلا :

- أتذكرين ساعة كنا في لحظة الاستجابة، تلك بداية كون آخر، آدميون أُخَرٌ وحواءات أخريات، سيكونون معك ومعي ؟

- آدم، أعتذر إذا قلت إني لم أعد أفهمك.

- ولا أنا أفهم ما أقول، إلهام يبث في فكري لا أدري كيف ؟ يترجمه لساني لا أدري ما وراء ما يقول، عالم المجهول. بدأت أضيق به ذرعا يا حواء، وأنت ؟

- أنا... ! أنا...! معك. غير أني صراحة لم أضق، شغوفة أنا بالجنة.

- (تهدج صوته مرة أخرى، ارتفع أكثر مما أراد له) لا أطيق السجن وإن كان جنة، لي ولك عقلان يتحركان، لنا يدان وقدمان، طاقات أخرى تتملك جسمينا من الداخل، والقوة التي تدفع بنا إلى هذه المسيرة التي لا تكاد تنتهي، لتبقى أنت بالجنة. أما أنا فلا أطيق.

- فكرت في مخرج من الأزمة التي يجتازها آدم، لا تذكر أنه عانى أزمة أخطر منها، تطلعت إلى وجهه يغمره الجمال والجلال، اختفت منه سمة الرضى تطبعه لمحة شفافة من غضب خفيف، ما تزال خطواتها متوانية بطيئة، يسيران في غير اتجاه، الفكرة ازدادت لمعانا :

- آدم، أقترح أن نزور الكوثر، ماؤه العذب السلسبيل يطفئ الغلة ويفرج ضيق الصدر.

ضاحكا في كشف عن سعادة :

- أنت الداء والدواء يا حواء، لو لم تكوني بجانبي، تستمعين إلي، تراني، لما فكرت الآن في الكوثر.

حاولت أن تسابقه فسبقها بقوة ذراعيه، يدفع الماء وراءه فيثير رشاشا في وجهها، تضحك سعيدة وتتمسك بأطراف قدميه حتى لا تبقى على بعد بعيد من صحبته.

## - 2 -

- حواء، أشاهدت أحدا ينظر إلي في فضول ؟

(ظنت أن وهما آخر يغمره، أصبح - فيما بدا لها - مضطربا لما يغمره من أفكار، فكره في أن يحتمي وراء شجرة فارعة، راوده الروع قليلا ، أطل عليه الوجه، من يطل عليه وراء الجهة الثانية من الجدع ؟ تبين الوجه أكثر من ذي قبل، جميل غير مرعب، تحيط به لحية بيضاء منظمة، ابتسامة متفرقة عينان سوداوان شعر وخطه الشيب. على الجسم رداء ساتر، التفت إلى نفسه وإلى حواء لا يستر سوءاتهما غير أوراق التوت.

- حواء...

- تملكها الرعب فلم تحر جوابا، كانت هي الأخرى في المشهد المثير المرعب، في اطمئنان ينبعث من ابتسامة سالمة، ناداها مرة أخرى :

- حواء...

صوت جهوري كأنه صوت رجل.

- لا تخش شيئا يا آدم، زيارة أمن وأمان، ألا تضيق بالوحدة ؟ ألا تقبل أنيسا مسالما يمنحك الثقة في المستقبل الذي يرهقك التساؤل عنه ؟

خرج آدم من رعبه. عاد إليه الاطمئنان والصورة المتلصصة وراء الجذع تتبدى واضحة في الفضاء الواضح.

- ماذا تريد مني يا، أنت ؟

- أعرفتني قبل أن تسألني ؟

- ومن أنت ؟ غريب في الجنة، لم يظهر لنا قبل اليوم.

- لست غريبا، لعلك نسيت وجهي يوم سجدت لك الملائكة، أنا الذي أبيت أن أسجد لك. لم تأخذ علما بذلك؟ أنا في خدمتك، إن لم أسجد لك فأنا الآن رهن إشارتك.

فزعا وتجمدا دون أن يتحركا من مكانهما، عيناهما تبحثان يمينا وشمالا، كلاهما يبحث عن الشيء... الشبح المتحدث. ركزت عينيها في عيني آدم، هاله أن يصفر وجهها من الرعب، هالها أن تلحظ في عينيه الدهشة ظنتها فزعا.

- لا تراعي إنه مجرد وهم ثم اختفى.

- لا... ليس وهما، كان رجلا يحدثك بصوت واضح، قال إنه لم يرغب أن يسجد لك مع الآخرين جاء لـ... اختفى.

- لا تبتئسي، لسنا في حاجة لمن يخدمنا، خيل إلي أن آدم غيرنا كان يتحدث، لا تفزعي، إنسي لحظة الهوس.

- لعلها الشجرة التي تحركت، لعل ريحا نفضتها.

أدرك أن هول المفاجأة يتحرك بلسانها، حاول أن يهدئ من روعها.

- حواء، لا تكوني ساذجة واهمة.

- وأنت... ؟

- (وجد نفسه محرجا) واهم أنا، الملائكة في جنتهم، لا يتفرد أحد منهم بالإدعاء، أنا وأنت كنا في غمرة الاضطراب ليس غريبا أن نتوهم.

- وهذا الذي خرج من وراء جذع الشجرة ذو لحية ليست كلحيتك، يغمرها الشعر الأبيض، أشبه ما تكون بتلك النبتة الغريبة.

- قلت لك اصرفي عن فكرك الوهم. كانت لحظة واهمة وانتهت، لا تذكري ذلك مرة أخرى.

- إذا لم أذكر فلن أنسى أنه حدثنا بصوت متناغم ليس صوتك يا آدم، ليس صوتي، جسم غريب يتدثر برداء.

تحدثت إلى نفسها ثم جهرت بالقول :

- كانت الملائكة التي سجدت لك تتدثر بأردية، لا أعرف كيف تملكتها بدلا من ورق الشجر ؟

- قلت لك ارحمي نفسك من الوهم، (علا صوته المتهدج في سورة غضب مصطنع) لو ظللت تحلمين بهذا الذي خرج من خلف جذع الشجرة لزارك طيفه مرة أخرى. أوَ تريدين ؟

- لا... لا...

وارتمت في أحضانه وكأنها تستجير. أطرافها ترتعش من توقع زيارة الطيف مرة أخرى.

- آدم، أوَ لم تُلهَمْ شيئا ؟

- الإلهام يجاور العيش، ما عهدتك تخافين من المجهول (وقعت كلمة المجهول في نفسها موقع الشك، ما رأته وزارها ليس مجهولا) الجنة لا يدخلها الغرباء. أفهمت ؟

لم تجب متأكدة أنه يواري فزعه بالتفكر. شعرت بإجهاد تجلى في خطواتها الوثيرة، قالت في صمت : لو لم يتحمل هول المفاجأة لبدا عليه الإجهاد هو الآخر.

- أود أن أستلقي خلف الشجرة الأخرى، هذه ملعونة لعلها هي التي تخشاها، تخفي وراءها لعنة ذاك الذي خرج من خلفها، ثم اختفى.

- استرخي يا أمة الله، لعلي أستريح قليلا من هذا الهوس.

كان أسبق منها إلى التمدد على العشب الأخضر النامي تحت شجرة غير ذات ثمر، أدركهما التعب، وجدا في التمدد على العشب الهدوء والاطمئنان النفسي إلى حين. أدركتها غفوة حالمة مريحة وفي نفس الوقت مزعجة.

- لا تنزعجا، سعدت بعد أن تركت لكما فرصة التأمل، لا تخافا.

يطل الرعب من عينيه. آدم أزعجه الصوت، استفاقت حواء ثم جلست محبوسة الأنفاس. يربت على فخذها، ألف آدم صوته ووجهه، كان أقل انزعاجا، فارقه الرعب قليلا ثم انطلق لسانه يحاوره :

- من أنت وماذا تريد ؟

- أنا هو أنا، لم أكن من بين الذين سجدوا لك، تريد أن تعرف اسمي «الرجيم. الرجيم» أحفظ الكلمة، جديدة عليك.

وجد آدم أنسا في حديثه، لم يبد مؤذيا، شجعته ابتسامته البريئة على أن يتساءل :

- لم تسجد لي مع الساجدين ؟ أهو استكبار واستعلاء على أمر الله ؟

- هو ذلك. قلت في نفسي : كيف أسجد لبشر خلق من طين، قل لي : ما نفعك أن سجدوا لك ؟ وما ضرك أني لم أسجد لك ؟

- عصيت أوامر صدرت إليك من الله.

- أرادني أن أعصي، ففعلت، أرادك أن تطيع فتسكن الجنة فأطعت. سيأمرك أن تعصى فتخرج من الجنة.

ضاقت حواء ذرعا فصرخت :

- نعصى، نخرج من الجنة ؟ من أين أتيت بهذه التَرَّاهَات ؟ الله لا يأمرنا بمعصية ولا ينهانا عن طاعة.

- توجه إليها الرجيم بابتسامة أكثر عذوبة :

- أو تظنين أنك في جنة الخلد ؟ كل شيء يتغير، أنت وزوجك اليوم في الجنة وغدا في الأرض.

- ستعرفينها وستكونين وزوجك أكثر سعادة، أقل اطمئنانا بين أعداء لن تجدا منهم ما تجدان هنا من راحة الضمير واطمئنان القلب.

كلمات لم تفهمها، آدم وحده يعلمها، القلب. الضمير. الأرض. الاطمئنان.

ضحك آدم في قليل من السخرية وقال :

- أو علمت ما لم نعلم ؟

- هو أراد ذلك، ليس لكما إلا أن تطيعا فتهبطان منها كما أطعتما فتسكناها. التفتت حواء لآدم تسأل :

- نهبط منها ؟ كيف ؟ لو كان صحيحا ما تقول لكان الأولى لنا أن نسمع هذا من الله وحده.

عادا بنظرهما إلى الأمام وجدا نفسيهما معا في دهشة، وقد اختفى الشبح، توقفت الكلمات، صمت مروع يلف

كيانهما، استلقى آدم ترتبط عيناه بالأفق البعيد. استلقت بالتبعية بجانبه تلتصق به من هول القول، الهدوء وصمت القبور والرعب يلفهما.

- الوهم... الوهم...

اجتر فكره الكلمة التي حاول أن يقنع بها حواء حينما اختفى «الرجيم» في المقابلة الأولى، لم يكن قد اقتنع.

- ليس وهما هذا الذي حدث الآن، إنه هو ، قد يكون تجسيدا حقيقيا، ذلك الذي امتنع عن السجود قد يكون مخلوقا من نوع جديد بُعث ليسكن الجنة معنا. يتجلى ويختفي، يتهرب مما لا يعرف، لا يعرف... ؟ ومن أدراني ؟ ماذا نفعل فيها ؟ كيف نعيش فيها ؟ كما نعيش في الجنة ؟ لم الهبوط إذن ؟ الأمانة ؟ هل هي أرض المسؤولية.

كاد يغمى عليه من اجترار الأفكار دون أن يجد فكره منفذا لفهم ما حدث وما سيحدث.

- الإلهام... الإلهام يا رب.

أحست بأنه يهمس بكلمة الإلهام، تمسكت به وقد اشتد تمسكها بجسده، كادت تسأله : من تنادي ؟ تجمدت الكلمات في لسانها، شعر بأنها ترتجف في كلمات غير ذات مفهوم :

- حواء... حواء... لا تراعي، ليس وهما ما حدث، آدم غيرنا سكن معنا الجنة، لن يؤذينا، يقول كلمته ويمشي. لنستمع إليه دون كبير اهتمام، لا يروعك ظهوره أو اختفاؤه من الآن، أنت وأنا في رعاية من أسكننا هذه الدار، فكري فيه كما لعلك لم تفعلي من قبل، ضعي ثقتك فيه.

كان لكلماته وقع في صدرها. سري عنها تحرر لسانها من عقدته، حاولت أن تبدو على ما يرام :

- آدم... أنا بخير.

ابتسم على غير إرادة همس لها :

- وأنا كذلك يا حواء، قلت لك لا تتوقعي إذاية منه، مسالم ودود، يتكلم بصوت هادئ.

همت حواء مسائلة آدم :

- ماذا كان يقصد بأننا سنخرج من الجنة ونهبط إلى الأرض ؟

- وجد آدم نفسه محرجا، صدق ؟ لم يصدق ؟ بم يجيب عن سؤال وضعه على نفسه من قبل، ولم يستطع أن يجيب.

- حواء ليس مهما أن يصدق أو لا يصدق، أو تظنين أنه يتحكم في المصير ؟

ما كل ما يقول يصْدُق...

- وقد يَصْدُق.

- أنت متشائمة يا حواء دعي الأمر في يد الإرادة العليا، نحن هنا لا نحكم أنفسنا، ولا يحكمنا ذاك الرجيم الذي كان هنا وذهب.

- ولكنه يتكلم وهو واثق كأنه يقرر. خائفة أنا يا آدم، خائفة جدا منه، يبدو لي أنه محتال متلاعب، واثق من نفسه جريء خائفة أنا من ذاك العالم المجهول الذي تحدث عنه «الأرض»، أو تستطيع أن تغادر الجنة لتهبط إلى الأرض ؟.

بدأت أعصاب آدم تحتد، ما بها هو ما به، يعالج الأزمة بما يستطيع، ينتظر الذي يأتي وقد لا يأتي، حواء سيطرت عليها الأزمة، هذه الأزمة ستؤثر سلبا على آدم بخوفها وضعف احتمالها.

- يا حواء، لا تعودي للتفكير في موضوع لا يهمك، تعرفين أنك معي وتحت رعايتي، اعتمدي علي منذ الآن كما اعتمدت دائما فأنا بجانبك، لن أتركك ولن أجعله يُلحق بك أذى.

ما غضب، وهو يحاول أن يثنيها عن خلق مشاكل بسبب رعبها، تتجاوز مشكلة هذا الرجيم الذي أثار أعصابه، لم يعد يفكر فيه بقدر ما يفكر فيها، نجح أخيرا في أن يجعلها تُعالج رعبها وتخوفها من المستقبل، مر وقت غير قصير حتى كاد

وكادت تنسي الطيف الذي رج كيانها، بدأت حياتهما العادية تعرف بعض الاستقرار والهدوء، تأخذ مجراها الطبيعي، لم تتحدث إليه بما يزعجه، آدم وحده ظل يراوده، توقع أن الطيف سيعاود الظهور مرة أخرى. أهو ملك ؟ لكنه عاص عن السجود، فالملائكة مطوقون بمسؤولية، ربما أمانة، إنهم لن يتأخروا عن أدائها ولن يهملوها. لا. ما أعتقد أنه ملك.

هكذا كان يفكر والأمر يراوده في اللا عودة للرجيم، ويطفر إلى فكره السؤال دون أن يشارك حواء فيما فيه يفكر.

وإذا عاد، كيف نتصرف في الذي يزعم ؟

كنت أوصيها وآمرها ألا تعود إلى التفكير في الطيف الذي ذهب ولم يعد، لو كانت في مثل جرأتي لطلبت مني ألا ألقي السؤال.

ومرت فترات هدوء في الجنة، تخلصت حواء من الرعب فلم تعد تلتصق بآدم، تبتعد عنه قليلا وتحرص على ألا تبتعد عن ملتقى نظراته، تناديه كلما ابتعدت قليلا : آدم آدم، لا لتتحدث

إليه بغير ما يعرف، ولكن لتشعر نفسها أنه قريب منها وأنها تحت رعايته، دعاها للسباحة في الكوثر، اعتبرت الماء يحميها من الرجيم فلم يسبق أن رأته في النهر. خرجا منه ترصع جسديهما قطرات فضية علقت بشعرهما. كلما خرجت من الماء رآها على غير ما يراها دائما، يلفت نظره، بشبق، شلال ماء يتقاطر بين نتوئي صدرها، يمد كفه لتنفض الماء عنهما، تشعر بارتعاش يندفع بجسمها إليه، تقترب منه أكثر فأكثر ويشعر بارتعاش يرج كيانه.

- حواء، أي شيء هذا الذي يحلو لي وأنا أنقص الماء عن صدرك ؟

- ذاك الذي يصيبني وكفاك تحتويان صدري... آدم...

وتوقفت الكلمات بينهما وعيناه تحتويان صدرها في نهم.

- أشعر بالجوع...

- أي جوع تشعرين به يا حواء ؟

لم تجب، كان فكرها في ملتقى ما فيه يفكر وكفاه تتأبطان ساعديها بقوة أشعرتها بشيء غير ما قد تشعر به من ألم من ضغط أصابعه، تراخت قبضته وما تزال عيناها في عينيه.

- يبدو أننا جائعان لنبحث عن شجرة طيبة نأكل منها رغدا كل ما شئنا.

أمسك بكفها يبتعدان عن نهر الكوثر يسيران في صمت تغمرهما لحظات ممتعة قضياها في السباحة وفيما بعد السباحة، كسر الصمت صوت من ورائهما يهتف في شبه همس :

- عندي كل ما تريدان شجرة لم تطعماها أبدا ستسعدان بفاكهتها اللذيذة وبطعمها المتميز.

تلفت آدم وراءه نحو الصوت الذي بدا ناعما كأنه يغني بكلام جميل.

- نحن نعرف طريقنا إلى الشجر الطيب.

همست حواء في أذن آدم وهي تلتصق به من جديد :

- ظننت أنه لن يعود أبدا.

- أنا صديق حميم أعود لكما وقد شعرت بشوق لرؤيتكما. فأنا في الخدمة، يا جميلتي (لأول مرة تجرأ على الكلمة) مثلما أخدم زوجك، ستتبعان خطواتي وسأدلكما على شجرة الخلد، أتريدان الخلد ؟ ثقا في معرفتي، أنا خادم مخلص، تنقصكم فقط الثقة بي، لتكونا سعيدين، وليكون لكما ملك لا يبلى.

فكر آدم وحواء متشبثة به طويلا في توقف وصمت.

- بدأت أقتحم العرين سأصل.

حدث الرجيم نفسه دون أن يبعد نظراته عن وجهي آدم وحواء، كان يقرأ الملامح فتزداد ابتسامته وضوحا، يستشف من عينيه مكر فاضح.

- ما علاقتك بما نريد أو بما نأكل ونشرب يا هذا ؟

- الرجيم، الرجيم... ليس إسمي، يا هذا... تذكرا اسمي جيدا، ستحتاج إليه وأبناؤك معك ومن بعدك، صلتي أني مكلف بخدمتكما، (طبعت صوته نغمة الجد) هذه مسؤوليتي، أو تريدان أن أتخلى عنها ؟ حتى ولو كنت مطوقا بها.

عاد إلى طمأنتهما بكلماته في صوت يحاول أن يجعله عذبا :

لا أريد غير خدمتكما، أنتما في هذه الجنة مدة طويلة، نصيحتي أن تغيرا من مسيرتكما لتحلو الحياة أكثر.

- وشجرة الخلد هذه أين تكون؟ يمكننا أن نقصدها بأنفسنا، نحن نعرف طريقنا إلى كل أنحاء الجنة.

أضافت حواء في هلع :

- نرجوك أن تدعنا وشأننا.

- يا سيدتي، شأني هو شأنكما، أتطرداننني من خدمتكما ؟ (رغبة في أن يكسر معارضتهما له) أنا مأمور بذلك (زاد من

ضغطه) آدم لا يعارض في أن آخذكما ما دمت مأمورا، أليس كذلك يا آدم ؟

التفتت حواء إلى آدم ورأت علامات، محايدة على وجهه وكأنه تأثر من كلام الرجيم.

- اتبعاي فالمسافة غير بعيدة، ستضلان الطريق وحدكما.

تقدمهما بخطوات كلها عزم على تحقيق ما أراده من إغواء، لاحظت حواء أنه يسير في طريق الغابة (قالت في نفسها تراها نفس الشجرة الرائعة التي اقتربت منها فغضب مني آدم ؟). غير بعيد من أطراف الغابة توقف الرجيم وهو يشير بيديه إلى الشجرة الضخمة الفارعة.

- أتريانها ؟ هل هناك أجمل منها ؟ ستتأكدان حين تطعمان من لذتها.

مد يده إلى ثمرة من ثمارها قطفها وقدمها إلى حواء. أمسكت بها دون أن تتناولها. انتظرت. امتدت يده مرة أخرى

إلى أجمل قطعة من ثمار الشجرة وقدمها لآدم. تردد قليلا وهو يتفحصها بعينيه.

- لتتذوقا فاكهة الخلد، هيا يا آدم فحواء تنتظرك.

امتدت يد آدم بالفاكهة إلى فمه فأكل الفاكهة ثم فعلت حواء.

- الآن اقطفا منها رغدا قدر ما شئتما، انتهت مهمتي خذا منها كلما جعتما. سأذهب وسنلتقي في غير هذا المكان (ابتعد وهو يرفع صوته ليسمعاه جيدا) في الأرض ستجداني وأبناؤكم ومن خلفكما إلى الأبد، (أعاد الكلمة بصوت أعلى) إلى الأبد...

اختفى الطيف وهما يأكلان بشغف الجائعين حتى شبعا ثم أخذا طريقهما، في غير إتجاه التفت إليها فوجدها عارية كما لم يرها من قبل. نظرت إليه وأدارت وجهها عنه. التقط أوراق شجر فمنحها بعضها حتى يستران سوءتهما، توارى آدم بعيدا استحياء.

سارا بعيدا عن الغابة حتى رأيا نورا يلمع بين عينيهما وسمعا صوت إلهام يهمس في أذنيهما

- ما هذا الذي يهمس في أذني يا آدم ؟

- ذاك الذي يهمس في أذني أنا.

ألم أقل لكما لا تقربا من هذه الشجرة، فعصيتما أمري طواعية لإبليس الرجيم. والآن اهبطا من الجنة إلى الأرض مأواكما ومأوى أبنائكم، بعضكم لبعض عدو.

## - 3 -

- إيه... ما قصتك اليوم يا حواء... ؟

- قصتي اليوم ؟ وهل كانت لي قصة بالأمس حتى تكون لي قصة اليوم... ؟

- من حسن حظي وحظك أنك تنسين ما تفعلينه في الصباح، فلاتذكرينه في المساء... لو لم تكوني نساءة لأصبحت دنيانا الجديدة هي القديمة.

ضحكت في عينه ووجهها يقترب من وجهه، تغافل عما تريد. أشارت بسبباتها إلى فمه وخدها يزداد اقترابا من فمه، مد ذراعيه القويتين اعتصرها وهو يضمها إلى صدره، يطبع قبلة في ملمس الإحساس من وجهها عانقها وهو يبتسم استمتاعا

وحيوية. عيناها في عينيه كفاها في كفيه بكلمات متأبية في شبه عتاب :

- دائما تذكرين دنيانا القديمة ألا تستعيرين بعضا من نسياني فتنسى جنتنا ؟ ألك أمل في أن نعود إليها ؟

- لو لم يكن ذاك الرجيم الماكر !!

- ولو... ذاك حلم وانتهى بمطلع شمس عالمك هذا.

- وعالمك... ؟

- وعالم قابيل وهابيل، من ينسى منا : أنت أم أنا ؟ سألتني عن قصتي اليوم.

- ثم صرفتني عن السؤال، أعرف أنك ستسأله ولو لم أسألك، ألك شغل غير الحكاية ؟

- لعلك نسيت في غيابي أن توقد الحطب وتجلب الماء من العين لطبخ ما أتيتك من ثمار، لن يلبث جوعي أن يشكوني إليك.

- أتنتظر قابيل وهابيل ؟ تلك قصتي اليوم، بحثت عنهما خلف الأكمة في الغور والسهل حتى يئست فعدت إليك.

- دائما تشغلين نفسك بهما، لم يعودان فتيان يتحركان كما يريدان، الأرض واسعة. ألا تذكرين أن قابيل صارع حيوانا على أطراف أرض الأشجار الفارهة فصرعه وعاد لاجئا بأمننا تحسبا من أن يطارده أبناء الحيوان الصريع.

- أخشى على قابيل جرأته واقتحامه الملمات...

- هو كما خلقه الله، دائما يشاكس يمتلئ غيظا.

- يزعجني أنني لا أذكر هابيل بالخير إلا وتحتد أعصابه.

- شيء جديد لم نعرفه في جنتنا القديمة، كنا معا، لا قابيل ولا هابيل. ما أحسست رغبة لأحدهما بعد أن جئت بهما...

- جئت بهما... ؟ تعيد نفس الكلمات، من أتى بهما... ؟ أنت أم أنا ؟ (في لهجة عاتبة شبه غاضبة) نَسَّاءٌ أنت وتتهمني بالنسيان. تنسى بالنهار ما تفعله بالليل... (تزداد لهجتها حدة) لولاك لما كان هابيل ولا قابيل.

- ولولاك ما أزعجنا هذا الصراع الذي يزعجني قبل أن يزعجك.

لم ترتح حواء لهذا الحديث، وقد شعرت بأنها جاءت بهما فعلا، أخذت تفكر - وقد ابتعد قليلا يجمع الحطب :

- من بين فخدي خرج كلاهما، انتفخت بطني كنت خائفة من أذى يصيبني استشعرنه فنظر إلى بطني وضع كفه على جنباتها يتحسسها من أعلاها وأسفلها، أحسست بأنه يتكئ بكفه قليلا، صرخت :

- لا... لا تفعل... إنك تؤلمني، ارفع كفك.

شعر بإحساس أسال لعابه. وددت لو أعاد لمساته بكف أقل عنفا... آدم هكذا، يشدد قبضته على ذراعي كلما هم بي، بطني تنتفخ لا تحتمل، شيء ما يتحرك، قال : إن أصابعه أدركت ذلك، (الذاكرة تستيقظ) كان ذلك قبل أن ينطق قابيل في ألم مزق أحشائي، خرج داميا وهو يفتح طريقه بعنف، تعلم من صرخات الألم وهي تنطلق من صوتي، أن يصرخ هو الآخر (الذاكرة

تستيقظ) كان آدم أكثر إدراكا جاء بآنية من ماء العين، غسله من مخاطه ودمه، ثم حمله بين ذراعيه.

- دعه يسير على قدميه يا آدم، أطعمه بعض ما بقي من ثمار.

كان أكثر إدراكا مني، الطفل لا يستطيع أن يسير، عليك أن تحمليه كلما هممت بنقله إلى ظل شجرة، غطي جسمه ببعض ردائك، حاولت أن أنظف جسمه بماء العين، نفث عضو منه ماء متدفقا (ضحكت) أصاب وجهي برشاته.

حملته بين ذراعيها، ضمته إلى صدرها. لاحظت أنه فتح فمه يتحسس يبحث عن شيء حتى اهتدى إلى ثديها. أخذ يمتص من ضرعها.

- هذا الطفل يبحث عن طعامه، فوجده يا آدم.

أين وكيف ذلك.

أعادت نفس المنظر أمامه وهو يشاهد. تبسم وهو يقول :

- هذا طفل سيكون موهوبا جريئا، يبحث عن أكله بنفسه.

تذكرت آدم، سيكون مثل آدم (ابتسمت وهي تتساءل ستكون له حواء ؟ ربما كان آدم يستطيع أن يجيب على السؤال سأخبره.

استمرت تفكر : بعد أيام وليالي عديدة جاء هابيل، ترى أكان يعرف الطريق التي سلكها قابيل ؟ ابتسمت وهي تذكر دفقة الماء التي خرجت من عضوه فأصاب وجهها برشاش. تذكر كيف بحث بفمه عن ثديها فامتص منه حتى روى.

أنت ساذجة يا حواء (تغتاظ كلما وصفها بالساذجة) الطفلان يشبهاني، أتعرفين (عدل عن كلمة كان سيفرجها في وجهها) العضو الذي أصاب وجهك برشاشة هو ذاك الذي تعرفينه ولا تذكرينه. هما ولدان لا يشتبهان، عليك أن تزدادي معرفة للتفريق بين الذكر والأنثى..

- الذكر والأنثى... ؟

- ضحك آدم وهو يفسر : قابيل، هابيل وأنا كلنا ذكر، أنت يا حواء أنثى، يبدو الآن أن بطنك تنتفخ من سنة لأخرى، وينطلق من بين فخديك ذكر أو أنثى.

هما وأنا لا نقوم بهذه المهمة، أفهمت... ؟

- بدأت أفهم وأسألك إذا لم تكن أنت السبب ؟

- قد يكون... أنت تكونين سعيدة كلما هممت بك.

- وأنت تكون (ابتسمت ابتسامة جذلي وهي تواجهه) ولكنك تغدو أكثر عنفا، يداك أكثر شدة. عنيف في قبضاتك (تراجعت بها الذاكرة) وسيكون قابيل وهابيل عنيفين مثلك ؟

- حينما تكون لكل منهما حواء ؟

- مثلي... ؟

- في شكلك. نعم، وربما ستكون أقل سذاجة منك.

- مرة أخرى «ساذجة» يبدو لي أنك تعتبر نفسك أكثر ذكاء وأقوى حيلة ودهاء (ارتفع صوتها في غضب) لست ساذجة هذه

الكلمة التي لا أكاد أفهمها، ولكني لا أحتملها، تقصد ناقصة عقل...

- أضاف في سره : ودين... تابع بصوت مسموع

- لا أبدا، أنت امرأة...

- أعرف وأنت رجل أعرف... ولكن ماذا تعني تلك الكلمة ؟

- السذاجة بالنسبة للمرأة صفة جيدة تعني ذكية في غير دهاء وفي غير مكر.

- وأنت ؟ الرجل، ذكي في دهاء ومكر. أتتحملهما على أن أتحمل سذاجتي.

- الداهية الماكر هو ذاك الذي قادنا معا من شهوتنا وجوعنا، وأخرجنا من الجنة إلى الأرض، التي سنعرف فيها شقاء ومحنا على قدر ما نحبها ونتعلق بها، لا لن أكون مثله...

- لو كنت مثله من ستخرج من الجنة؟ لعله فريد لا يوجد له مثيل.

## - 4 -

تجلى لهما الرجيم مرة أخرى في لحيته البيضاء ووجهه الطويل، ازدادات عيناه ضيقا، تنفثان نظرات صاعقة، يسير الهويني... يتكئ على عصا عاتية البأس، لم ينتظر أن تبدأه حواء بالحديث كما تفعل معه في ضيق من آدم.

- جئتكما بخير قد لا يسعدكما، لكن هي الحياة، طلبتماها وتركتما الجنة، ألم تطرق أذنيكما كلمة الوعيد، بعضكم لبعض عدو...

كانا ينظران إليه مأخوذين، آدم توقع شرا من مجيئه على غير انتظار. حواء لم تتوقع شرا، لم تنتظر مجيئه، صمت مثير، كاد آدم يصرخ في وجه:

- لم جئت ؟ ماذا وراءك ؟ اذهب. عليك اللعنة.

طالت نظراته الصاعقة في وجههما، نطق أخيرا : بعضكم لبعض عدو، عدو، وصمت حتى استقرت تلك الكلمة في نفس آدم، أضاف :

- قابيل (سكت حتى ظنا أنه لن يتكلم)، أضاف هابيل أين هما ؟ لم تبحثا عنهما ؟ ثم كرر : بعضكم لبعض عدو... عدو.

اختفى الرجيم عن ناظريهما، توجهت حواء بعينيها إلى وجه آدم، وجدته أصفر، فاقع اللون، تنصت إلى صدره - وكانت قد اقتربت منه عند حضور الرجيم - أنفاسه تصاعد في إجهاد كما لو قدم راكضا من بعيد، رأى وجهها مشدوها في سذاجة من لم يتوقع شرا.

- أسمعت يا آدم ماذا قال ذلك الرجيم ؟

- سمعت شرا، ما فهمت، توقعت. أينهما ؟ أصبحت تبحثين عنهما وما أخبرتني بمكانهما، (ارتفع صوته في حشرجة) أيتهما؟ ما وجدتهما وراء الأكمة...؟

- ولا في السهل ولا على شاطئ النهر...

- لَم لمْ تخبريني. لم تكملي ؟ ما فكرت في أن تدعوني للبحث عنهما؟

ارتاعت حواء من حشرجة صوته الجريح، عادت إليها متأخرة كلمات الرجيم، أخذ وسواس يلعب بسذاجتها، صاحت بصوت عال كأنما تود لو يسمعها الآخران :

- قابيل... هابيل...

توجه إليها آدم بكلماته يحاول أن يغلب إشفاقه غضبه :

- تنادين فيبتلع الفضاء نداءك، لم لمْ تنادهما وقد كنت تبحثين عنهما وراء الأكمة وعلى حافة النهر ؟ وتتعصبين إذا قلت ساذجة.

ارتفع صوتها وقد جرحتها كلماته :

- ساذج أنت، لَم لمْ تبحث عنهما أنت ؟ وقد تفقدتهما منذ صباحك، قمت بعمل كان يجب أن تقوم به تخلفت أنت عن عمل

لم أغفل عنه (عاد إليها بعض الرشد) أضافت : سيعودان كلما تحابا عادا، لا تخش شرا، ألا تذكر أن قابيل صرع حيوان الغابة ؟

صوتها كان يرن في أذنه ولا يستريح في عقله، صرخ في وجهها :

- قلت لك توقعت شرا من كلام الرجيم، لم يأت إلينا في وقته عبثا، لم يؤذن وجهه بغير الشؤم، الفاجعة من ورائه، سأبحث عنهما بنفسي...

- أنا معك...

- لا... إلزمي مكانك فقد يعودان، ولعلك تأنسين بهما، أما أنا فلن أعود دونهما (سكت قليلا وأضاف) أو بأحدهما.

حمل عصاه يتكئ عليها ويهش بها على حيوانات الغابة ، يصطاد بعضها بعضا في السهل والأكمة وعلى ضفاف النهر.

- لا تتغيب طويلا، أنا وحيدة، إذا هاجمتني أسراب الليل (تدافع عن نفسها) أنا لا أخاف. ولكن الليل الموحش يفزعني...

## - 5 -

كان على غير عادته مشغول الفكر مهتز الأعصاب، يحمد للصدفة أنها لم تقترح أن تصاحبه في رحلة البحث عن قابيل وهابيل. بدأ يضيق بفضولها كلما حز بهما أمر... لا تتردد في إبداء الرأي والإصرار على صوابه والإلحاح في إتباع مخططها، لا تحاول أن تقتنع برأيه أو إتباع تدبيره، منذ جاء إلى هذا الوجود بدت امرأة أخرى... سلطوية... ؟ ليس بهذه الدرجة، غير أنها معتزة بالرأي الذي تراه، لم تعد تستشيره إلا أحيانا، وقد لا تأخذ برأيه، يحاول أن يقنعها بسذاجتها فتضيق ذرعا بالكلمة، أحيانا تصيح في وجهه رافضة أن تكون ساذجة رافضة أن يكون الرأي غير رأيها...

لا يدري لم شغلته في بداية مسيرته للبحث عنهما، ولكنه مقتنع بأنه لو صاحبته لما عثر لهما على أثر، خاصة قابيل هذا الشقي الذي لا يستريح له، ويسيطر عليها بقوة شخصيته حتى لتشعر بأنها مدينة له بالحياة.

بدأ يخطو خطوات متثاقلة، فما يظن أنه يسير طويلا قبل أن يجدهما، ثم وجد نفسه يمد في خطواته، تساعده عصاه العتيدة كأنها تمده بخطوة إضافية في كل خطوتين.

- لو لم أجدهما... ؟

وضع السؤال على نفسه دون وعي، غير أنه وقع في عمق السؤال دون أن يعي. لو فكر قليلا لما شغل نفسه بسؤال غير ذي موضوع، عاد به التفكير السلبي إلى هوس يتسرب إليه أحيانا فأجاب :

- لو كانت معي لسبقتني إلى هذا السؤال، لألحت علي في أن أجيب، لاختلقت عشرات الاحتمالات في كل احتمال

عشرات الأجوبة، ويحي سأصبح بعضا منها، بينما تبتعد عن أن تبقى بعضا نسيت - وقد أكون أنا أيضا بدأت أنسى - أنها خلقت من ضلعي.

يحاول أن يفكر في غير شيء، الأشجار والنخيل والحشائش تعلو ركبته أحيانا، تعلم أنه يستخدم عصاه في قهر سموقها مخافة أن تتحنش حولها أفعى، أو ترقد في حجرها عقرب تتلوى حول ساقه أو تلسع قدمه، يفكر في طنين الذباب ورنين الناموس وصوت زئير حيوان ينفذ إلى أذنيه من أعماق الغابة، ونقيق ضفدعة تلتصق بجوانب النهر، صوت ما يحمله الفضاء لا يدري أجاءه من أمامه أو خلفه، لا يدري أهو صوت البوم أو هديل الحمام... يعيش خطواته مع كل هذا العالم، وهي... هي لا تبرح مخيلته، يقول لنفسه أحيانا :

- ليتني ما تركتها وحدها، ضوء النهار بدأ يختفي والليل يقترب، وفي الليل تفقد شجاعتها وصلابتها، كلما جن الليل اقتربت مني كأني نهارها، ضحك من نفسه وهو يفكر :

- لا تبرح مكانها من نفسي، ولو أغاظتني بفضولها وكثير لغطها.

عاد إلى عادته في استعمال صوته البعيد المدى، كثيرا ما أنجده في البحث عنها كلما كانت تغرق في المسير بين الاشجار، وفي أعماق الحقول تبحث عن شيء جديد، كل جديد كان بين يديها في الجنة، لكنها تبحث عن الجديد لتلغو بالجديد من الكلام.

- وماذا كانت تفعل إذا لم تشغل نفسها بالبحث عن الجديد وبلغو الحديث ؟

تساءل وهو يستغرب من جديد أنها تشغله وهو يبحث عنهما لا عنها، أنه يعرف أين هي ولكنهما ؟ وانطلق صوته الصاخب في ندائه :

- قابيل... هابيل...

أعاد النداء بصوت بدا له أكثر قوة، تدره صدى صوته، الفراغ يردد الصدى، زئير الحيوانات الكاسرة وهريرها ينبعث بين أشجار الغابة، مرعوبة من الصوت ؟ مستجيبة لنداء تحسبه من حيوان غريب عن مجتمعها، ونصب أذنيه في الهواء عله يسمع، رجع ندائه بنداء مماثل من قابيل وهابيل، لا شيء غير طنين الذباب ورنين الناموس وزئير الحيوانات في الغابة الفارعة، اشتغل فكره مع الغابة.

- قابيل يفعلها.

قال هامسا في نفسه، يعرف أنه مغامر لَم لا يغامر مع الغابة ؟ وقد صارع أحد سادتها فصرعه. ولكن هابيل فتى قليل الحيلة، ضعيف الهمة، لا يجرأ حتى على المغامرة بالسباحة في النهر إذا عتت مياهه.

- هابيل...

ارتفع صوته المدوي مرة أخرى طمعا في أن يعثر عليه إذا صعب العثور على قابيل. مع الصوت المدوي انبعث من بعيد يسير بخطى سير آدم، شبح رآه من ظهره، عصاه في يده تحيط بقامته هالة حمراء كأنها نار مشتعلة، حاول آدم أن يتوقف عن المسير فتوقف الآخر، حتى إذا أعاد لنفسه الحماس ليخطو خطوة خطا الآخر مثله دون أن يدير وجهه، عرفه من خلفه ومشيته، فكر في أن يعود أدراجه، فطن أن الشبح أدار ظهره، رآه أمامه يخطو خطواته مانحا ظهره لآدم. غير وجهته من جديد فرآه قبالته يمنحه ظهره ويسير سيره. كف على أن يرفع عقيرته بالنداء ربما...؟ لم يركبه رعب، ألف أن يراه بوجهه البشع، ها هو ذا يدير ظهره، لأمر ما، ما وراء هذا الرجيم ؟ وهو يمشي مشيته المختالة، يحرك عصاه في تحد ساخر، هم أن يناديه... عاد إلى نفسه، تذكر أنه يمنع حواء أن تخاطبه أو تجيب على سؤال من أسئلته. اعتقد أنه يقاطعه، غير أنه يجده في طريقه وهو يبحث عن ولديه بعيدا عن مقره، لو تبدى لحواء في وحدتها لأرعبها أو لأوقع بها شرا.

أسدل الليل ستاره وهما يسيران على مبعدة غير قريبة، أضاء القمر آفاق السماء وانعكس ضياؤه على الأرض تلمع من خلاله الأشجار الفارعة والحشائش النامية، وهو هو لم يخفه الليل، تلمع ملابسه تحت ضياء القمر يتمايل في مسيره يسارا فيقترب من حافة الغابة.

وجد آدم نفسه يسير في اتجاهه كأنما كان يخطط له الطريق. فتحدث إلى نفسه هامسا :

- إلى أين يسير هذا الملعون ؟

لأول مرة يسميه الملعون، وبدل عن اسمه الرجيم، لم يطل به السير أكثر مما سار، توقف، الصبح على حافة الغابة، أشار بعصاه نحوها، حركها حتى تأكد أن آدم رآه رأي العين، إتجه نحو آدم وهو يرفع عقيرته بحيث سمعه :

- هنا... هنا... قد تبحث عنه. فهمت ؟ عد من حيث أتيت... تجد عندهما الخبر اليقين...

يقتحم الغابة لم يستمر في مسيرته. اختفى الشبح. توقف آدم مشدوها وما زال صوت كالفحيح يصم أذنيه... ود لو سأل، ستنقل الرياح صوته لو فعل، اختفى الشبح، الفراغ... الفضاء... وصوت بومة ينعق على رأس شجرة سامقة، القلق، الحيرة، الغيظ، الفاجعة، تأكل أحشاءه. وأوقعت عصاه تضرب حشائش الأرض علها تفسح له طريق العودة، بصيص أمل راوده فارتفع صوته الجريح يخرج من الفضاء الصامت :

- قابيل... هابيل...

رد صوت لم تغب رناته عنه يحشرج في أذنيه :

- عد... عد من حيث أتيت، عندها الخبر اليقين.

ظلت عصاه تقص الحشائش وتفتح له الطريق، ضاعف من خطواته الواسعة وهو يأخذ طريق العودة، بدت له مسيرته طويلة ومرهقة، لو أمل أن تسمعه لرفع عقيرته بالنداء :

- حواء... حواء...

رفع عينيه إلى السماء كما كان يفعل كلما حزنه أمر، يأمل في أن يشرق في صفائها نور الله... اكفهر أديمها بسحب داكنة، ما تزال بعض أشعة القمر تتلصص بينها، تكشف له طريق العودة، دلف إلى أذنيه فحيح أفعى تحسسها تتلوى على سيقان الحشائش، هوى بعصاه ثم هوى، أدرك أنه أرداها، فقفز إلى بعيد يواصل السير حذرا من أخرى، كاد يقع على وجهه لولا مشيئة الله، والعصا العتيدة التي أنقذته من سقطة عنيفة، لم يعد يفكر في غير الطريق، والخبر اليقين عند حواء يلفه القلق الفاجع.

- ليتني غيرت طريقي فلم يعترضني ذاك اللعين ليرمي بي في متاهات القلق والحيرة والوسواس.

هدف إلى أذنيه صوت فحيح :

- سأكون في طريقك مهما غيرت اتجاهك لأخدمك. أمامك وخلفك وبين قدميك، سأكون معك ولو اختفيت عن ناظريك.

ارتفعت ذراعه القوية تزيح الحشائش عن طريقه. سار لا يلومني على شيء، توقف تفكيره عن الحركة، نال منه التعب، ود لو استلقى على الأرض ليستعيد بعض نشاطه، ثم رن الصوت في أذنيه من جديد :

- عند حواء الخبر اليقين.

تحامل على نفسه يتكئ على عصاه يهوي بها على الحشائش لتفتح له طريق العودة، شعر بأنه اقترب من مقره، نداء صارخ يقربه من الهدف لو عاد له رجع صداه وارتفع صوته الجريح :

- حواء... حواء...

وكان رجع الصدى من صوت ضعيف جريح مخنوق.

- آدم... آدم...

دله الصوت على الاتجاه السليم، شد من عزمه رغم إحباطه، شعر بأن الصوت المتهاوي طوى الطريق إليها ووصل.

النهر بجوار الكوخ، يخشى قابيل أن تثير حركته تساؤلا، ينوء بثقل عمله، يعد نفسه لحساب أو عقاب، أرغبت نفسه الجريحة غضبة آدم، سيواجه حواء في البداية، قد تكون أكثر رحمة من غضب الأب، يشعر بالغيرة والألم كلما رأى آدم يداعب هابيل أو يوثره بثمرة أو ينبش في وجهه... سيعرف. وسيثور لغياب الولد المفضل، قد يفعل به ما فعل هو بهابيل، رآه مرة يصرع حيوانا كاسرا. منه تعلم أن يصارع الحيوان الذي خرج من الغابة يقطع عليه الطريق (تذكر) فعلها نفس الفعلة التي جربها مع الحيوان... لم يقطع علي طريقي. يقف دوني وإيثار آدم. وابتسامات حواء، لا يستحق البقاء معي، يؤثرانه علي حتى في غذائي ومداعبتي.

- من يتحرك آدم أم قابيل ؟

- لا أنا قابيل.

- تعال إلي فآدم يبحث عنكما منذ ضياء الشمس، أين كنتما. (لم يمهلها السؤال) أين أخوك هابيل ؟

- دائما تسألين عنه... لم لا تسألين عني ؟

- عنكما كان يسأل آدم، لم يطمئن إلى غيابكما فراح يبحث عنكما.

- لو غبت أنا وحضر هو أكان يبحث عني ؟ هابيل هو الأفضل ؟ أليس كذلك ؟

ضاقت بإثارة نفس المشكلة، يثيران اللغط والخصومة إلى حد الصراع، لم تفهم قط لماذا ؟ ماذا يثير قابيل من هابيل. تجاوزت الإثارة وسألته جادة في حزم :

- أين هو ؟ لَم لمْ يعد معك ؟ تكلم، سيعود آدم ويسألك وسيثور في وجهك وسيغضب كما لم يغضب أبدا.

عالمه أصبح عالمين، اغتبط بمشاعره وهو يجد نفسه بعيدا عن عالمها، شعر بأن عالمه انفتح على آفاق جديدة. كانت كل أفقه، وكان كل أفقها، لا تغيب عنه، تتسلق شجرة وتستريح تحت ظل أخرى، إلا وجد نفسه يبحث عنها، أو تبحث عنه إذا تغيب

للاختلاء بنفسه أحيانا. ارتبط بها منذ خرجت من ضلعه، كأنما لتكون لصيق جسده، يتضايق أحيانا لأنها لا تبتعد عنه إلا لنزوة، تسلق أشجارا أو اختفى وراء ربوة الكوخ، لا يتضايق من التصاقها به إلا شعر بأنه يفعل فعلها، يرتاح حينما كان يشغلها هابيل عنه.

صاح في أعماقه :

- هابيل... أينك يا هابيل...؟

- قابيل لم يشغل فراغه، فكر بانحياز في نفسه: ليت هابيل كان مكانه.

نبذ الماضي، شغل حواء بالأطفال (الذكور منهم والإناث) أصبح بعضهم فتيانا يقفون بجانبه، أصبحت بعضهم فتيات يحملن عنها عبء ما كانت تحمله، يحطبن الحطب لإيقاد النار ويجلبن الماء من العيون والأنهر، يغسلن الثياب كلما اتسخت، يؤنسن وحدتها في الأيام الطوال، فقد أصبحت لا تجد آدم

بجانبها إلا عندما توشك الشمس على الغروب (تعلمت من آدم الأسماء كالشمس كما تعرفت على القمر، وما تزال تعجب أين يغيبان وكيف يعودان ؟ سألت آدم فلم يجب، لأنه لم يضع السؤال على نفسه، ينتظر أن يأتيه الوحي بذلك)، سعيدة هي أن تستقبله وأن تسابق الفتيات لاستقبال قبيل الرجال يتقدمهم آدم من بعيد، يستريح إلى جوارها حتى إذا تسابق الفتيان والفتيات في الحقل يفرحون باللقاء بعد يوم غياب، أسند رأسه إلى فخدها، وفتح عينيه على أبعادهما في شوق إلى ابتسامتها التي لم ينطفئ بهاؤها.

تلقي حواء على مسامع آدم سؤالا في ابتسامة عذبة تملأ محياها :

- ماذا فعلت في يومك هذا ؟ ماذا فعلتم في يومكم الذي طال حتى أخذت الشمس في المغيب ؟ نفس السؤال يلقيه آدم على مسامعها وعيناه لا تبرحان وجهها الصبوح، لا يضيق بسؤالها

هي لا تضق، ويجيب في اغتباط سعيد، وقد غاب عنها منذ شروق الشمس حتى اقتربت الشمس من مرقدها.

- اليوم يا حواء كان العفريت «قابل» أسبقنا جميعا إلى سهل منبسط قريب من النهر، اختفى راهيم فترة من زمان، أتانا بعصي مدببة رؤوسها، تغرسها في الأرض فتحفر أديمها، صاح سرافيل لنملأ هذه الأحجار المقعرة لنصب ماءها فتبلل الطين وتسهل على العصا أن تنغرس في التربة الصلدة، غاب سماعيل عنا بعض الوقت ثم عاد وهو يحمل ثمرات غريبة التقطها من أطراف الغابة، لم تستجب إحداها لقضماته، فصاح بابل :

- لو وضعناها في الحفرات التي شققنا التراب عنها ؟

- أضاف سرافيل :

- وصببنا عليها الماء صبا نحمله إليها من النهر، ستصبح الثمرة أكثر طراوة.

ثم هتف أخ له من بعيد.

- وأكثر حلاوة.

تعلم الأطفال - يا حواء - كيف يقعرون الأحجار الخفيفة ليحملوا بها الماء، غدا يتعلمون كيف ينبتون الأرض حبا تبدو ملامح منه على أطراف الحشائش السامقة، لو قطفناه وشققنا الأرض شقوقا يأوي فيها، ثم صببنا عليه الماء صبا لتكاثرت نباتاته وأثمرت، «لا تنسي يا حواء بأن الله عز وجل علمني كل شيء مما نحتاج إليه عندما أمرنا بأن ننزل إلى الأرض».

- وعلمت الفتيان ؟

- سأفاجئهم، سأجد عند كل منهم فكرة مكملة أو حيلة ذكية لإنجاح الفكرة.

- محظوظون أنتم يا آدم، تتجولون في الحقول وتردون النهر وتشقون الأرض وتغرسون السنابل. البنات هنا يتحركن كالقطط (رأت القطة على أطراف الغابة فعلمت باسمها، تتحدث عنها بحب، ألفتها فأخذت تزور الكوخ كلما أخذها الحنين، تتمسح

بذيلها على حواء، تقفز بين قدمي إحدى البنات، يصدر عنها مواء أثار إحدى بناتها فأصبحت تحملها وتقلد مواءها، تطرب القطة فتمد خدها وعنقها حتى سماها إخوتها القطة، يطرب آدم أن يناديها بذلك ) يقمن بكل شيء: يحطبن ويسقين ويغسلن الثياب... وأبقى أنا عاطلة في كنف الكوخ، أضيق ذراعا بالكسل القاتل: أين أيامنا الحلوة في الجنة يا آدم ؟

انتفض آدم من متكئ كانت حواء وسادته كمن مسه طائف من غضب، لم يرفع صوته كما يفعل عادة كلما غضب، تحدث إليها هذه المرة بنعومة فيها قليل من العتاب:

- حواء، قلنا إننا لن نعود إلى الماضي، أتغضبين لو ذكرتك بأننا كنا السبب حينما قادنا فضولنا إلى تلك الشجرة الملعونة ؟ ثم يوم أطعنا ذلك الرجيم فأكلنا منها سوية ؟

لو لم تفعلي، ولو لم أفعل ؟

- كنت أكثر مني تعقلا، كنت تأمر وكنت «ساذجة» دائما تكرر الكلمة، أليس كذلك؟

- ساذجة... (صمت قليلا وأضاف): ومغرية، أنت التي كنت تأمرين لا أنا ؟

(ضحكت ضحكة عاتبة كما كانت تفعل كلما حاولت أن تهدئ من ثورة غضبه)، أجابت:

- وما أزال يا آدم. (صمتت وهي تشعره الكلمة في فمها): أرأيت لو أصدرت أوامري بأن ننتقل جميعنا حيث تعلمون لنعمل جميعا في الأرض والحقل ؟ نسقي الماء ونشق الأرض لنزرع فيها الثمرة والحب عساها تنبت الأجود والأحلى، لم نكن في الجنة نحتاج إلى عمل وسعي وراء الأشجار وبين الحقول والوديان والأنهار، كنا نرغب أو نطلب أو نتمنى، كل حلو وطري وجميل متاح لنا.

شعرت بأن الغضب أخذ يتسلل إليه فيغير ملامح وجهه، حاولت أن تتراجع عن حديث الجنة فسيقها إلى القول:

- آمل يا حواء ألا تعلمي بناتك كل صناعتك

- (في حذر) كل الجميل منها ؟

ابتسم ابتسامة رضى، وهو يعترض مشاكسا...

- وأي جميل فيها ؟ (تراجع وقد شعر بحدة الكلمة) كلها جميلة، ولكن حينما يتكرر الجميل مرات في اليوم يصبح شيئا آخر قلت لك يا حواء: الماضي لن يعود.

- ولكن الذكريات جميلة حبيبة إلى قلبي.

- وما لم تبعث الشجن والأسى والحزن، نحن في هذه الأرض قبيل وقد تصبح قبيلة.

أخرجها من منطقة صمت كانت تكبت ما في نفسها:

- كنت سأحدثك، راودني ذلك الهوس في بطني مرة أخرى، أخذت أشعر بأني سأقيء كل ما أكلته من ثمر وما شربته من ماء.

- مرة أخرى يا حواء... ابتسم وهو يتحسس بطنها في حنو، أنت امرأن ولود معطاء.

- دائما تنسى يا آدم، لو تذكرت قليلا ما يوحي لك به الليل لقلت عن نفسك ما تقول عني.

تذكرت الأرض التي يشقها ويزرع فيها الثمرة الجافة ثم يسقيها بالماء، لم تستطع أن تعبر عما يحكيه ويقصه الأولاد.

- يصنع معك ما أريد أن أقول، وما أزال أفكر في جوابي عن رغبتك، نحن قبيل معي الفتيان وقد أصبحوا شبابا ورجالا، ومعك الفتيات وقد أصبحن شابات ونساء، نقتسم هذه الضيعة، لكن الكوخ وما يتطلبه من عمل ناعم ممتع، ولنا الحقل وحافات الغابة، حيث تقطن السباع والحيوانات الضارية. أشعرناها بألا

تتعدى حدودها فلا تهاجم حقولنا ولا نهاجم عرينها. نحن ذووا السواعد المفتولة لنا العمل الشاق وستأتيك نتائجه، إذا أعطت الأرض وأثمرت، اتفقنا يا حواء.

- ولم أقتنع، حتى لا أقول الكلمة عشر مرات فأغضبك، لا أطيق الخمول، ولدت في غير أرض ميتة لا حراك بها.

- ومعك قبيل من بناتك (ضحك) وقطتك التي يداعب ذيلها اللطيف قدميك.

انتفخت بطن حواء مرة أخرى، يتلقاها آدم بإشفاق وهي تراوح بين قدميها في خطواتها. تتحامل على نفسها كما لو كانت تمر بالتجربة الأولى، تشعر بالغبطة وهو يحنو عليها في ود.

- هذه المرة بنت وولد، تعلمت أصابعي كيف تميز بين الذكر والأنثر.

- (ضاحكة) ولو من وراء غشاء سميك.

- آخر مرة كانتا بنتين، ألفت أن تغيري من عادتك، بنتان، ولدان... هذه المرة بنت وولد.

- (ابتسمت متعبة): لم لا يكونوا ثلاثة أو أربعة ؟

ضحك ضحكة عامة أسلمته إلى تفكير عميق صامت:

- لم لا...؟ لم يستشر أحدنا الآخر ساعة الاستجابة. والذي صنع اثنين قادر أن يصنع ثلاثة أو أربعة، المرأة طاقة خلاقة لا حدود لقدراتها على الإنجاب.. والرجل ؟

- سؤال ألح عليه، حواء لا تنجب دوني، طاقتي توازي طاقتها ؟ أخذ يتفحص جسده في طوله وضخامة صدره وقوة عضلاته، جسمها أقل ضخامة وأقصر قامة وأنعم ملمسا، لأول مرة يفكر في حواء، انتفاخ بطنها يزيد في تعلقه بذاتها، حتى وهي تتكئ على كفيها لتنهض من مجلها، لم تعد تفكر في أن تصحبه وأولاده في عملهم الشاق، يبدو أنهم يشقون الأرض ليحولوها إلى نموذج من بعض ما عرف في الماضي، وفكرت:

- هم يشقون ويعلمون من إشراقه نور الصباح حتى تأذن الشمس بمغيبها، لا أحد منهم يعيش في وضعي أنا، لو حاولت أن أقوم مقام بابل أو سرافيل لما حملتني قدماي مع ما يملأ بطني من طفلين أو ثلاثة كما توقع آدم، لم تعد تطلب إلى آدم أن تصحبه وقبيل الأطفال إلى السهل والجبل، غير أنها تترك الكوخ في أمانة بناتها لتطوف حول الربوة متكئة على عصا كما يفعل آدم أو على يد إحدى بناتها كما اقترحت أكبرهن (هامولا).

- أشعر بأني أتخفف من عبئي قليلا (ضحكت في وجه ابنتها ستعلمين كيف تتخففين من حملك يا هامولا يوم تصبحين أما كأمك.

أفرزت كلماتها تفكيرا غامضا في فكر (هامولا)، تساءلت:

- سأصبح أما تنتفخ بطني وينطلق من بين فخدي صبيان وبنات...؟

غرق فكرها في سيل من الأسئلة : متى ؟ كيف؟ لم لا الآن ؟ والأخريات ؟

ماذا صنعت أمي حتى انتفخت بطنها ؟ أسألها أن تعلمني ذلك ؟

أفرجت عن سؤالها في وجه أمها:

- أمي : ماذا أكلت حتى انتفخت بطنك ؟ أتدلينني على صنيعك ؟

بهتت حواء... انتفخت بطنها، وأفرج عما حملت... انتفخت ثم انطلق من بين فخديها طفلات وأطفال... آدم يعرف كيف. لا يود أن يخبرني، يبتسم كلما سألته في ساعة الاستجابة. قال لي مرة :

- أنا مأمور بوحي أن أفعل - (لا أعترض) - بطنك ستنتفخ وتنتفخ، تنجبين بنات وبنين، أنت تنجبين وتسألين كيف ؟

همت أن تجيب هامولا عن أسئلتها، عجز فكرها أن يسعفها.

- ستجربين يا هامولا، أنا لا أعرف كيف ؟ ولماذا ؟ لعل آدم يعرف، لا تسأليه فقد سألته مرة فلم أفهم منه شيئا.

- أصبحت عاجزة عن الحركة، لعل ما بك صار يشقيك ؟

- أنا كما أنا يا هامولا... مررت بنفس التجربة، يصيبني الأذى ثم ينطلق الأطفال من بين فخدي فأستريح، كلكم خرجتم من بطني، ثم سري عني بعد معاناة، ستمرين بنفس التجربة، ولعلك تعرفين...

أصبح آدم في الكوخ مع حواء، أدركها الطلق كانت في حاجة إليه بعد أن فشلت هامولا وأخواتها في مساعدتها، أخبر قبيل الأبناء أنه سيلحق بهم بعد أن يفرغ من عمله، انطلقوا يشعرون بحرية كاملة في أن ينصرفوا دون رقابة آدم، أسرعوا يهللون نحو الحقل الذي أزهر، شقت

الأرض أديمها تصاعدت ثمرات ما تزال نصفها في حضن التراب أزهرت بعض الأشجار والحقول التي أشرف آدم على رعايتها وأغرقها الفتيان بمياه النهر ينقلونها بالأحجار المقعرة، سنابل اخضرت بدت على رأسها حبات سماها أحد الشباب شعيرا وسماها آخر حنطة (تعلموا من أبيهم لأن الله علمه الأسماء كلها).

- هابيل لن يعود... لن يعود،

- لماذا لا يعود؟

- قتلته...

- ويلك... أخاك..؟!

- أجل، فعلت،

«جلس قابيل أمام جثة شقيقه. كان هابيل أول إنسان على الأرض يموت أو يقتل. حمل قابيل جثة شقيقه يمشي بها على

غير هدى ثم رأى غرابا يحط بجناحيه إزاء جثة غراب. وضع الغراب الحي الغراب الميت على الأرض وساوى أجنحته إلى جواره وأخذ يحفر الأرض بمنقاره، وضعه برفق في القبر. وعاد يهيل عليه التراب.. بعدها طار في الجو وهو يصرخ. اندلع حزن قابيل على أخيه هابيل كالنار وهو يصيح: عجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي. أحرق الندم قلبه، اكتشف أنه – وهو الأسوأ والأضعف – قد قتل الأفضل والأقوى. نقص أبناء آدم واحدا. وكسب الشيطان واحدا من أبناء آدم. اهتز جسد القاتل ببكاء حاد ثم أنشب أظافره في الأرض وراح يحفر قبر شقيقه».

صاحت حواء كما لم تصح من قبل في لوعة حزن قاتلة، لطمت خدها – كما لم تفعل من قبل – نظرت إلى قابيل بعينين اختفى منهما الحزن أمام ثورة الغضب، وانفجار الحقد، تحدثت إلى نفسها :

- ما كان قابيل ليفعل (نظرت إليه نظرة جريحة أضافت): ستحمل منذ اليوم كل سخطي وعدواتي، صر سمعها صوت كفحيح الحية الضارية لم تخف عنها نبراته :

- أنا أتذكريني أخبرتكما، أنذرتكما : «بعضكم لبعض عدو...».

عادت بها الذاكرة إلى وراء، نفس الصوت بنفس الكلمات ترددت في آذانها هي وآدم، وها هما يهبطان منها.

بأنين صوت مكلوم ثارت في وجهه قابيل:

- أغرب عن وجهي، لا أريد أن أراك، ولا آدم سيقبل أن يراك بعد اليوم.

- وتفتقداننني أنا الآخر...؟

- لا عادت بك دنيا... أنت لعين قاتل تحمل سخطي وسخط والدك، ابتعد عنا للأبد.

على بعد خطوات من كوخ القش والطين جلست حواء تنتظر، تبدى لها طيف آدم من خطواته القوية، من بعيد كان نور القمر يكشف عن شجن، اختفى أحدهما عندما تبين قامة آدم، توقف أمامها سامقا كالضم . قبل أن يأخذ مقعده بجوارها، بصوت قلق جريح تساءل:

- أين هابيل...؟

- لم تنتظر الكلمة الأخيرة تصدر من فمه حتى صاحت بصوت باك تلطم كفاها خديها

- قتل... قتل...

- من قتله؟ تراه افترسه حيوان الغابة...

وعاد الصوت الباكي ينوء بكلمات لم يتبينها:

ألا يكون هذا من عمل الشيطان؟ إنه عدو مضل مبين.

- لا... لا... قتله قابيل.. قتله ولدك يا آدم...

- صاح صيحة مدوية: اللعين الرجيك فعل قتله...؟ من زعم ذلك؟ هذا لا يحدث...

وتذكر: عندها الخبر اليقين...

- لا... ابنك قابيل قتل أخاه... هو اعترف. طردته لن يكون لي ولا لك ابنا.

حزن آدم حزنا شديدا على خسارته في ولديه. مات أحدهما، وكسب الشيطان الثاني.

- صاح بصوت مرعب:

- قابيل، أين أنت يا قابيل؟

تردد طويلا قبل أن يستجيب لنداء آدم، صمت الصوت المنادي، مدة غير قصيرة، مفجوعا مشلول التفكير أمام امرأة مكلومة مفجوعة. عجزت عن الصياح.

لاذت بالأنين والدموع تبلل خديها، أنين نابع من صدر محترق. آدم لا يستطيع مواساتها يدرك أي حي كانت تكنه لهابيل، (يتذكر) كانت غير مطمئنة لهذا الولد العاق المغامر، كانت تتحداه وهي تعلن عن تفضيلها لهابيل. صارحها مرة :

- حواء، أنت أم، (بدأت تدرك مفهوم هاته الكلمة) كنت أوصيك ألا تؤثري أحدهما على الآخر، ينصحها، لا يلبث أن يثير سيرتها مع الطفلين، قلبه كذلك يميل لهابيل يجده مسالما أنيسا يميل إليه بمقدار ما يميل لحواء، حينما كانا يخلوان إلى بعضهما في سكون الليل يسعدهما أن يكون ثالثهما يأنسان بحديثه. تؤثره حواء بأشهى ما تقطفه من أشجار، وفواكه تشق عنها الأرض، قابيل ينعزل ويبتعد كلما ضم أبويه وأخاه مجلس.

- لماذا يحبون هذا الغلام؟ رعديد كلما طرق أذنيه زئير حيوان الغابة، أو مشى بين قدميه حيوان أليف يتغذى من حشاش الأرض؟ ماذا أفعل لأصبح الأثير لديهما؟

ترسب السؤال في أعماق ننفسه يبحث في كل لحظة له عن جواب...

ضج الفضاء الليلي الصامت من أنين حواء.

- صاح آدم أين أنت يا قابيل؟ أناديك ولم ترد، إذا لم تحضر سألاحقك وعصاي في يدي...

استعادت ذاكرته كيف يقضم آدم الحشائش، اليابسة والخضراء، بعصاه المستدير رأسها، يمناه تشق الطريق المعشوشبة ترعب حيوانات الغابة فلا تتعدى عرينه.

ونهض من مخبئه في أحضان شجرة عارمة، خطا خطوات ثقيلة نحو الكوخ وقد وضع رأسه بين قدميه، بينهما كان ضوء القمر ما يزال يلمع ليحدد له مكان وقوفه مطأطأ الرأس في إذلال، وارتفع الصوت الملجوم بحسرات وحزن:

- ماذا فعلت بهابيل...؟

ساد صمت عميق لا يقطعه غير أنين حواء، وارتفع الصوت مرة أخرى ليصيب حواء برعب شجي، ارتعش جسمها المحموم.

- قتلته.

- كان منك بمثابة حيوان الغابة يا قاتل؟ من أوحى إليك بذلك؟

فكر آدم في ما جرى عله يهتدي، ضج من داخله صوت صاعق:

- قابلت ذلك الرجيم في طريقي، أهو من أوحى إليك قتل أخيك؟ كان معكما؟

بهت قابيل وآدم ينطق بما لم يشهد! (أجاب وهو يرتعش):

- أجل، كان معي.

- وكان يردد «بعضكم لبعض عدو»؟ حرضك على قتل أخيك فسولت لك نفسك فعل أسوء حدث في دنيانا؟

كان قابيل يحرك رأسه إيجابا دون أن يرفعه في وجه والده، حرك رأسه في ضوء باهت.

- أجب، تكلم وإلا شققت رأسك بهذه (وهو يحرك عصاه بيمناه).

- وسوس لي في أذني: لَم تؤثره حواء عليك، ستبقى ذليلا بينهم؟ ولماذا تُقبل منه قربانَه وأنت لا؟

- أغرب عن وجهي، لا رأيتك...

هدأت أعصابه، حاول أن يهدئ من شجن حواء، ساد صمت مطبق رمى بآدم في تفكير عميق،من يكون هذا الرجيم؟ لم يلازمنا كالظل؟ ما ذنب هابيل ليغري بقتله؟ في هذا الكون الفسيح يتحرك كما لو كان يملك ما فوق (أشار إلى السماء) وما تحت (أشار إلى الأرض) هناك في الدار الأولى تابعنا حتى فقدنا جنتنا، وها هو هنا في الدنيا المتوحشة يتابعنا وهو يهمس: «بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين»

ها هو الآن يغري قابيل بهابيل... من يدري لعلع يغري حواء بي أو يغريني بها؟ ارتعدت فرائصه للفكرة، انتبهت حواء للارتعاش ينتفض منه جسم آدم.

- آدم... ما بك؟ ترتعش لمقتل هابيل؟ حق لك ذلك.

- لا يا حواء، اطمئني. ارتعش لمصيرنا في الدنيا الجديدة، سيكون بعضا لبعض عدوا. كل من أبنائك القادمين سيقتل بعضهم بعضا. سيكون القتل – لا الحب والتعاون – شريعتهم. الرجيم سيلاحقنا ويلاحق أبناءنا من بعدنا ليقضي على حياة الناس، في دنيا لا يبقى فيها إلا الحيوانات الكاسرة... أعرفت لم ترتعد فرائصي...؟

- أطمئن وقد قتل هابيل؟ كان أنيسي عند غيابك، ضاع فيه الأمل، ضياء ساد بعده ظلام، آدم (اهتز عقلها لفكرة البديل) أني لي بالبديل...؟ وكيف...؟

عادت بكلماتها الساذجة بفكر آدم إلى صوابه، انطلق كأنه كان يقرأ من كتاب:

- حواء، أنت امرأة، سيكون لك العديد من هابيل والعديد من حواء. فضاء الأرض الفسيحة تعمرها الطيور والوحوش والحشرات، تعترضني في طريقي حيات وأفاعي، الغابة حافلة بالحيوانات، يختلف زئير الأسد عن هديل الحمام. أنت وأنا سنكون دون حيوانات الغابة جميعها. ستنفتح بطنك مرة ومرات، ستخرج من بين فخديك حواء تشبهك، وآدم يشبه هابيل، كنا وحيدين في الدار الأولى، أصبحنا (أشار بأصابعه الأربعة) على الأرض، غاب هابيل، وسيأتي غيره، سنكونا سعيدين بخلفتنا، (صمت يغمر تفكيره أكثر من مضمون) هذه الأرض الفسيحة لن تكون لك ولي وحدنا.

- أضافت : ومعنا قابيل؟

غض عن كلماتها ثم أضاف: رأيت البحر حين هبطت على ساحله، نسير في السهول والوديان وعلى حافة النهر

وقرب مشارف الغابة، من سيملأ هذا الفضاء الواسع، إذا لم يكن عديد من آدم وعديد من حواء، الحيوانات والزواحف والحشرات لن تكون أولى منا بهذه الأرض الفسيحة.

- لعلها عرفت كيف تتكاثر؟

- ونحن نعرف وسنعرف، جربنا فكان قابيل وأعدنا الكرة فكان هابيل، سيعمر الفضاء بكثير غيرهما.

أشرق وجه حواء بالأمل، لم تتحول الإشراقة إلى ابتسامة تحيل وجهها إلى ضياء في صبوحه، حاولت أن تعبر عما طفحت به نفسها من أمل فسألت في حبور :

- صحيح... صحيح يا آدم..؟

- لا أبلغك إلا الصحيح من القول أجابها وهو يحاول اقتلاع الحزن من أعماقها...